- 7 -

أحضر كيساً من القماش

تعوَّدت كلما دخلت قاعة القصر الرئيسة، النظر إلى قطعة قماش زرقاء، مثبتة على الجدار. لم يعرف أحد، باستثناء من حضروا في الأيام الأولى للاحتلال، ما كانت تغطيه تلك القطعة: صورة لصدام وهو يمرر قطع القرميد إلى العمال المنخرطين في إعادة إعمار القصر المهدم، جراء تعرضه للقصف، في حرب الخليج الثانية. وُضِع نموذجان للقصر في جوارها، يبين أحدهما مدى الضرر الناتج عن القصف، بينما يظهر الآخر ما تم إعادة تشييده من بنية أكبر حجماً، وأكثر فخامة. اختفى النموذجان، بكل الأحوال، بعد بضعة أشهر من قدوم الأمريكيين.

وقف ثلاثة من الحراس الأشداء، في إحدى زوايا القاعة، إلى جانب جهاز لكشف المعادن، حيث يقع مكتب بول بريمر. احتوت الجهة المقابلة على «الغرفة الخضراء»، مقر أعضاء فريق مكتب الاتصالات الإستراتيجية.

مثّل «ستراتكوم»، كما كان يعرف في القصر، مكتب العلاقات العامة في سلطة الائتلاف المؤقتة، بإدارة دانيال سينور. بلغ الرجل الثانية والثلاثين من العمر، وقد كان نحيل الجسد، طويل القامة، يفتقر إلى الشعر في مقدمة رأسه. نظر دانيال إلى الصحافيين بمعايير مجردة من النسبية، مصنفاً إياهم بين من يقفون إلى جانب الاحتلال الأمريكي، ومن يعارضونه. قدم الرجل إلى العراق برفقة غارنر، ليواصل البقاء هناك بعد مجيء بريمر. اقتصرت خبرته الصحفية على العمل، متحدثاً باسم أحد أعضاء مجلس الشيوخ، ليدين، مع ذلك، بكثير من الولاء للحزب الجمهوري، وينضم، بعد وقت قصير، إلى الحلقة المقربة من الحاكم الأمريكي. قدم سينور العون لبريمر فيما يتعلق بتحديد مواعيد المؤتمرات الصحفية، واختيار من يلتقي من الصحفيين، ناهيك عن فرص التقاط الصور التي تستحق المخاطرة، عبر مغادرة المنطقة الخضراء.

سلطت الأضواء على سينور، بمرور الأيام، بما يفوق أياً من مسؤولي سلطة الائتلاف المؤقتة، باستثناء بريمر. اعتاد الرجل عقد مؤتمرات صحفية موجزة، في مركز المؤتمرات، عدة مرات في الأسبوع. أوكلت مهمة تجهيز قاعة المؤتمرات إلى أحد مستشاري البيت الأبيض الهندسيين، الذي توجه إلى بغداد؛ بغية تحديد موقع ومقاييس الشعار الخلفي، الذي يحمل عبارة «سلطة الائتلاف المؤقتة»، ناهيك عن تزويد القاعة بشاشتين تلفزيونيتين عملاقتين، بما يمكن سينور من عرض مقاطع تلفزيونية. أنجزت مهمة تجهيز القاعة بسرعة كبيرة، بينما انتظر مسؤولو سلطة الائتلاف الآخرين أشهراً قبل وصول ما يحتاجونه من معدات وطواقم.

لم يقر سينور، في أثناء اعتلائه المنبر، بأي من الأخطاء، وقد بلغت جهوده لتحويل الإخفاقات إلى نجاحات حد السخف في بعض الأحيان. تحدث، ذات مرة، قائلاً: «يجيب غالبية العراقيين بلا، حين يسألون عما إذا كانوا يودون رحيل قوات التحالف»، بينما تشير استطلاعات الرأي التي تجريها السلطة إلى النقيض تماماً. أصر الرجل، علاوة على ذلك، حين سئل عن سبب الازدحام الهائل أمام محطات الوقود، على أن ذلك يمثل «إشارة جيدة»، بالنظر إلى إقبال المزيد من العراقيين على اقتناء السيارات، بعد سماح سلطة الائتلاف المؤقتة باستيراد ربع مليون عربة جديدة. لم يأتِ سينور، في حينه، على ذكر إخفاق السلطة في دفع هاليبرتون، وغيرها من المتعهدين، إلى حل المشكلة عبر تأهيل مصافي النفط العراقية. لم يتسم الرجل بالصراحة فيما ينشر من تصريحاته. سأله عدد من المراسلين، في نيسان/ أبريل من العام 2004، عما يتعرض له الأمريكيون من هجمات في المنطقة الخضراء، ليجيبهم قائلاً: «إن لم تنشروا ما أقول فسأجيب بأنها تحترق، أما إن فعلتم، فسأقول: إن الأمن والاستقرار يعودان إلى العراق».

لم يكن سينور يتحدث العربية. كانت الكاميرات تتصيده حين يضع السماعات، بغية الاستماع إلى ترجمة أسئلة الصحافيين العراقيين. اتسمت بعض المؤتمرات بالهزل، على وجه التقريب، جراء جهله اللغة العربية. تمحورت معظم أسئلة المراسلين العراقيين حول توقيت دفع معاشات التقاعد، وزيادة إنتاج الطاقة

obeikandl.com

الكهربائيــة، لتفتقــر الإجابات عنها – فــي كثير من الأحيان، إلى مــا يرضي النفس، جراء تلاعب المترجمين بالأسئلة أو الإجابات. أحيل بعض المستعلمين عن الخدمات الحكوميــة، في أحيان أخرى، إلى مجلس الحكــم، بغية إثارة الأساطير حول ما يملكه من سلطات فعلية. افتقر المكتب الصحفي في المجلس إلى الفاعلية، عاجزاً عن منح ما يطلبه المراسلون العراقيون من إجابات في كثير من الأحيان.

تحــدث سينور، في مؤتمراته الصحفية الموجــزة عن زيارات وفود من الكونغرس ووزراء أمريكييــن. عقدت جلسات أخرى للمتحدثيــن بالعربية، بإدارة بريطاني يكرر مــا ذكره سينور من نقاط، مما أثــار حنق العراقيين. تذمــر مراسل إحدى الصحف البــارزة فــي بغداد، عقــب حضور مؤتمــر لسينور، قائــلاً: «يود العراقيــون معرفة ما يحصل في العراق، ليقتصر ما يتحدث عنه على شؤون السياسة الأمريكية».

تمثلــت أولوية سينور القصوى في إطلاع وسائــل الإعلام الأمريكية على مجريات الأمور، لا سيما المؤيدة لبوش منها. مثلت قناة «فوكس نيوز» إحداها (عمل سينور، في وقت لاحق، معلقاً لدى القناة عن شؤون العراق). دخلت مكتبه ذات مرة، لأجد واحداً مــن أجهــزة تلفازه الثلاثة مداراً، يعرض بث «فوكس نيوز»، كما هــي الحال بالنسبة لمعظم أجهزة التلفاز الأخرى في القصر، بما لا يستثني مكتب بريمر. لم يكن أي من الجهازيــن الآخرين، في مكتب سينــور، يعرض بث «العراقية»، القناة الحكومية، التي كان يفترض بستراتكوم الإشراف عليها.

غطى بث قناة العراقية وحدها الأراضي العراقية كافة، بواسطة محطات الإرسال التــي أقامتهــا حكومة صــدام. حُظرت الأطبــاق اللاقطة قبل الحــرب، لتمثل محطة الحكومة الخيار الأوحد، بما تعرضه من نشرات أخبار تافهة، وتقدمه من مديح بحق صــدام. هرع العراقيــون، بعد سقوط حكمه، بما لا يثير الاستغــراب، لاقتناء الأطباق اللاقطــة، ومتابعة قنــاة الجزيرة، وغيرها من المحطات العربيــة. تلاشت الحماسة الأوليــة سريعاً، بكل الأحوال، ليتعطش العراقيــون إلى معرفة أخبار بلدهم، مفتقرين إلى ما يذكر منها، في معظم الأحيان، عند متابعة قناة العراقية.

فجـرت شاحنة مفخخـة بألف رطل من المتفجرات، فيما بعـد ظهيرة أحد أيام آب/ أغسطـس، أمام مقر الأمـم المتحدة. هز الانفجار المنـازل الواقعة على بعد خمسـة أميال، وكان الأعنف من نوعه في بغداد منذ انتهاء الحرب. هرع العراقيون إلـى أسطـح منازلهم لتبيان مـا حدث، عاجزين عـن رؤية ما خـلا أعمدة الدخان الضخمـة، قبل النـزول لمتابعة أجهـزة تلفزتهم. كانت قناة العراقيـة تبث برنامج طهـي مصري، حين أدار صديقي سعـد المؤشر إليها. امتلـك الأخير طبقاً لاقطاً، كغيره من سـكان بغداد، كما بدت الحال عليه. انتقل الرجل بالمؤشر إلى الجزيرة، التـي كانـت تغطي الحدث بصورة مباشـرة، متسمراً أمام شاشتهـا بضع الساعات اللاحقـة. اتسمت التغطية من موقع الحدث بالموضوعية، على النقيض مما رافقها مـن تعليقات، حيث وصـف من أسموا أنفسهـم المحللين الاحتـلال الأمريكي بغير القانوني، وكادوا يباركون منفذي العملية.

سألنـي سعـد، في وقت لاحـق، قائلاً: «هل يريـد الأمريكيون تحويلنـا جميعاً إلى مجاهدين؟، لم لا يعملون على التصدي لهذا العهر الإعلامي؟».

تلقيت الإجابة عن ذلك السؤال من منتج تلفزيوني مخضرم يدعى دون نورث.

عمـل نورث مصـوراً تلفزيونياً في فيتنـام، ومدير مكتب في القاهـرة، ومستشاراً إعلامياً لقائد القوات المسلحة السعودية، وأستاذاً للصحافة في البلقان. تلقى الرجل، قبـل بضعة أشهر من غـزو العراق، عبر مكالمـة هاتفية من شركـة تطبيقات العلوم الدولية، المتعهد الدفاعي البارز، عرضاً للإسهام في إنشاء محطة تلفزيونية مستقلة فـي العراق. انخرط نورث، أشيب الشعر، في أحد الأعمال الحرة قرب واشنطن. نال الرجـل كفايته من الحـروب والشرق الأوسط، ليجد كثيراً مـن المغريات في العراق. مثّل عمله هناك توليفة من كل ما قام به منذ كان في فيتنام.

تعاقدت شركة تطبيقات العلوم الدولية مع البنتاغون لإدارة شبكة الإعلام العراقية، التي تشمل إذاعة وتلفزيون الدولة، وصحيفة تصدر ست مرات في الأسبوع. لم تملك الشركة خبرة في إدارة الإعلام في مراحل ما بعد النزاع، بل تصميم أنظمة حاسوبية

لوزارة الدفاع ووكالات الاستخبارات. قدم البنتاغون عقد الإعلام العراقي للشركة، بكل الأحوال، دون طرحه في أي من المناقصات. عمل مكتب فايث على صياغة العقد، بالنظر إلى عمل معاونه، كريستوفر رايان هنري، نائباً لرئيس شركة تطبيقات العلوم الدولية قبل انضمامه إلى البنتاغون. تعاقدت الشركة مع روبرت رايلي، مدير إذاعة صوت أمريكة السابق، لإدارة مشروع شبكة الإعلام العراقية. ترأس رايلي، في عهد إدارة ريغان، حملة عمليات البيت الأبيض الإعلامية في نيكاراغوا؛ بغية حشد التأييد لثوار الكونترا.

أنجزت أولى مهام دون نورث مع الشركة على التراب الأمريكي. أسهم الرجل في إنتاج برنامج وثائقي عن جرائم صدام ضد الإنسانية، استناداً إلى رغبة الحكومة الأمريكية في عرضه في دول إسلامية؛ بغية حشد التأييد للحرب. سأل نورث رؤساءه الجدد، عند الانتهاء من البرنامج، عما يمكن فعله تمهيداً لإدارة محطة تلفزيون العراق. استذكر الرجل، بذلك الصدد، قائلاً: «أجابوني قائلين: «حسناً، يمكنك فعل ما تود الآن. سنراك مجدداً في بغداد، بعد سقوطها». عقبت قائلاً: «ألا يوجد ما يمكننا القيام به، كالتخطيط على سبيل المثال؟. يتمثل ما أعنيه، بحسب خبرتي، في أن التخطيط لبرمجة وإقامة محطات تلفزة وإذاعة جديدة يستلزم عدداً من السنوات».

أجابوني قائلين: «لا، لا. كلفنا عدداً من الأشخاص اقتناء المعدات. لسنا واثقين مما سنجده حين نتوجه إلى بغداد، ولكن لا تقلقن بشأن ذلك».

أحضر نورث، عند وصوله الكويت، مجموعة من المعدات التي اقتنتها الشركة، ليكتشف مدى النقص الذي يعتريها. تحدث، بذلك الصدد، قائلاً: «بدا الأمر وكأنهم ابتاعوا المعدات كافة من أحد أسواق البراغيث في لندن».

ذهبت خطة الرجل، بعد بضعة أيام، لاستخدام معدات البث في وزارة الإعلام العراقية أدراج الرياح، بعد أن سوى الجيش الأمريكي مبناها بالأرض بواسطة صواريخ كروز. لحظ نورث، قبيل مغادرته إلى بغداد، وجود عدد من كاميرات الفيديو

الجديـدة لدى شركـة التطبيقات. طلب الرجل أخذ إحداها إلـى بغداد، ليرد سؤاله، بالنظر إلى أنها كانت مخصصة لفريق الشركة الأمني.

اتجـه نورث، عنـد وصوله بغـداد، برفقة اثنين مـن عراقيي المنفـى، إلى وحدة عسكريـة تملك جهاز بـث إذاعي. تمكن الثلاثة، في غضون يوم واحد، من بث تقارير إخباريـة وإعلانات باللغة العربيـة. اتسمت طريقة عملهم، بكل الأحـوال، بالبدائية: يستمع أحد المنفيين إلى إذاعة «البي بي سي» على الموجة القصيرة، قبل أن ينقل ما يسجلـه من أخبارها إلى نورث، الذي يقوم بتحريرها، ثم إرسالها إلى العراقي الآخر بغيـة قراءتها على الهواء. أدرك فريق نورث، بعد مضـي أسبوع، ضرورة الحاجة إلى تغطيـة المؤتمر الصحفي الأول لجـاي غارنر. سأل نورث -من ثمّ- زملاءه في شركة التطبيقات منحه مسجلاً صوتياً، ليخبروه بعدم توافره لديهم.

فشـل البنتاغـون، مجدداً، في تأمين المـوارد الضرورية لإنجـاز المهمة. لم تتلقَّ شركـة تطبيقات العلوم الدولية سوى 15 مليون دولار، فيما يتعلق بذلك الصدد. أشار رايلـي، في مذكرة تلتمس المزيد من التمويل، إلـى أن قناة «العربية» الإخبارية، التي انطلقـت حديثـاً في حينه، تحظى بميزانيـة سنوية تبلغ 60 مليـون دولار، ناهيك عن التنويـه بأن مهمة الشركة لا تقتصر علـى إنشاء محطة تلفزيونية فحسب، بل وأخرى إذاعية، علاوة على إصدار صحيفة إخبارية.

لم تتضح لنورث، بكل الأحوال، كيفية إنفاق الشركة مبلغ خمسة عشر مليون دولار التـي تلقتها من البنتاغـون. زعم رايلي أنه أنفق 1.2 مليـون دولار بغية اقتناء معدات إستديوهـات التلفزة والإذاعة قبـل الحرب، ولكن نورث لم يلحـظ الكثير فيما يتعلق بذلـك الصدد. كشف المفتش العام في وزارة الدفاع، بعـد مضي أشهر، النقاب عن جـزء من الحقيقـة: ابتاعت الشركة، على نفقـة الحكومة، عربة هامـر وشاحنة نقل مـن طـراز فورد، ناهيك عن استئجار طائرة شحن، مـن طراز «دي سي - 10»، لنقل العربتين إلى بغداد. لم يتمكن مدققو الحسابات في البنتاغون من تحديد كلفة شراء السيارتيـن، واستئجار الطائـرة، على وجه الدقة، ليقدروها بمـا يزيد عن ثلاث مئة وثمانيـن ألف دولار. اكتشف المدققون، علاوة على ذلـك، أن عملية الشراء رفضت،

فـي بداية المطاف، من قبـل مسؤول التعاقد في البنتاغون، لتقـوم الشركة بتجاوزه، والحصـول على الموافقة من مكتب فايث. استخدمت عربة الهامر البيضاء، المزودة بجهاز لتكييف الهواء، ذات النوافذ القاتمة اللون، في تنقل موظفي الشركة في بغداد، وقـد لفتت الأنظـار سريعاً فـي المنطقة الخضـراء، لتطغى على عربـات السوبربان المستخدمة من قبل موظفي سلطة الائتلاف المؤقتة.

تهيـأت شبكة الإعـلام العراقية، عقب شهر مـن وصول نورث إلى بغـداد، للقيام ببثها التلفزيوني الأول. انضم ما يزيد عن المئتين من العراقيين، الذين عمل العديد منهـم في القناة الحكومية قبل الحرب، إلى شبكة الإعـلام العراقية ليعملوا تقنيين، ومحرريـن، ومراسليـن. أحضـر بعضهم، علاوة علـى ذلك، ما خبـؤوه من كاميرات ومعدات تحرير إبان أعمال النهب.

اتفق طاقـم الشبكة على أن يتمثل البث الأول في تقرير إخباري. أخبر دان سينور نـورث، بـكل الأحوال، في الليلة السابقة للبث، أن المعـد الذي اختاره – منفي عراقي سابـق معروف، أدار محطة إذاعية معارضة – لم يكن يحظى بالقبول. لم يكن سينور يريـد أياً مـن المنفيين في ذلـك الموقع. وجـه الأخير نورث، علاوة علـى ذلك، إلى أخذ نشرات الأخبار، المسجلة سلفاً، إلى منزل الزعيم الكردي جلال الطالباني؛ كي تتمكن زوجه من مراجعتها.

توصل نورث إلى تسوية، فيما يتعلق بمسألة المعد، عبر التعهد بضم امرأة من غير المنفيين، رافضاً عرض الأخبار على زوج الطالباني.

خاطـب نورث سينور، بذلك الصدد، قائلاً: «تخطئ يـا دان، في مطلبك. لن تمر تلك الأخبار. لن يسمح العراقيون بذلك».

سجلـت شبكـة الإعلام العراقيـة الأخبار في اليـوم الثاني، وقـد كان من المقرر أن يفتتـح الإرسـال بآيات من الذكـر الحكيم. حضر سينور إلـى الإستوديو، قبيل بث الشريط، مطالباً نورث بحذف الآيات من البرنامج.

سأله نورث، قائلاً: «من أمر بذلك؟».

أجابه سينور، قائلاً: «أتى الأمر من واشنطن. سنبدأ بفصل الدين عن برامج التلفزة».

عقب نورث، قائلاً: «على رسلك. عشت زمناً طويلاً في دول عربية. يمثل القيام بذلك تقليدا متبعا».

عقب سينور، قائلاً: «لا، تلك هي الأوامر».

أومأ نورث برأسه، قبل أن يغادر المكان، متيقناً من عدم تطبيق تلك الأوامر في نهاية المطاف.

أصر العراقيون في الشبكة، حين أطلعهم نورث على محادثته مع سينور، على تضمين الآيات في البرنامج. بثت الأخبار في تلك الليلة بصيغتها الأصلية.

افتقر ذلك إلى الحرفية. اتسم التحرير بالرداءة، ناهيك عن طريقة التصوير. لقيت نشرة الأخبار العراقية الأولى، بكل الأحوال، كثيراً من الصدى في شوارع بغداد.

رغب نورث وزملاؤه العراقيون في أن تمثل شبكة الإعلام العراقية نسخة عن البي بي سي: شبكة تلفزيونية – إذاعية تمول من قبل الدولة، مع الاحتفاظ باستقلاليتها. سعى الصحفيون العراقيون، علاوة على ذلك، إلى تحديد الكيفية التي يغطون بها الأخبار، وإن التمسوا عون المستشارين الأمريكيين في بداية المطاف. لم تمثل الشبكة، مع ذلك، في نظر بعض من مسؤولي سلطة الائتلاف المؤقتة سوى أداة دعائية: نتحمل عبء تمويلها، ومن ثَمّ يحق لنا تقرير ما تبثه. لم يرغب مديرو شركة التطبيقات، بحسب نورث، في وضع العراقيل أمام سلطة الائتلاف فيما يتعلق بذلك الصدد.

سأل نورث سينور، بعد بضعة أيام من انطلاق البث، تحديد موعد لإجراء الشبكة مقابلة مع بريمر. وعد سينور نورث بالعمل على ذلك، بالرغم من انشغال بريمر. اتجه فريق من الشبكة، بعد بضعة أيام، إلى القصر لإجراء المقابلة، بما لا يزيد عن نصف الساعة، استناداً إلى جدول أعمال بريمر. رافق سينور أعضاء الفريق إلى مكتب بريمر، قبل أن يبدؤوا في نصب معداتهم. أدار سينور دفة الحوار، حين بدأ التصوير، ليوجه أسئلته «المريحة» لبريمر، واحداً تلو الآخر.

بـدت المقابلة دعائية للغاية، فـي نظر نورث وطاقمه العراقـي، حين اطلعوا على شريطها. قرر الأخيرون–إذاً– استبعاد كل ما ورد في المقابلة، باستثناء مقطع صغير لبريمر وهو يثني على الشبكة، باعتبارها تمثل «صوت العراق». سأل سينور نورث، في اليـوم الثاني، عن سبب استبعاده بقيـة أجزاء المقابلة، ليجيبه قائلاً: «حسناً يا دان، لـو أجرى آري فلايتشر (المتحدث السابق باسم البيت الأبيض) مقابلة دان راذر مع الرئيس، فهل تتوقع أن تقوم محطة «سي بي إس» ببثها؟».

لم تزد المقابلة من سلطة الائتلاف إلا تعنتاً، بحيث أمرت شبكة الإعلام العراقية بتغطيـة العديد مـن المؤتمرات الصحفيـة والحملات الدعائية، ممـا ضيق الهامش علـى الصحفيين العراقيين لتغطية ما اعتبره نـورث «قصصاً إخبارية حقيقية». أمر مسؤولـو سلطة الائتـلاف المؤقتة، ما إن غدت تقنية البـث المباشر في متناول اليد، بنقل المؤتمرات الصحفية بمجملها.

أمرت السلطة الشبكة، علاوة على ذلك، ببث برنامج يومي، مدة ساعة، ممول من قبل الحكومة البريطانية، يدعى «نحو الحرية». أثنى البرنامج على تحرير العراق عبر تصريحـات حماسية براقـة لمسؤولين أمريكيين وبريطانييـن. تخوف طاقم الشبكة مـن تضـرر مصداقيتها جراء عرضـ البرنامج الممـول حكومياً قبل نشـرة الأخبار المسائيـة. كتب خمسة من موظفيهـا، في رسالة احتجاج إلى مديري شركة تطبيقات العلوم الدولية، قائلين: «نطلب، بمنتهى الاحترام، معرفة الأجندة السياسية المقحمة هنا. تعوز المهنية، بلا ريب، قرار عرض برنامج دعائي رديء، من الخارج، لاستبداله بنشـرة أخبارنا!. لن يتابع الأخيرة، بعـد مشاهدة «نحو الحرية» ساعة مرهقة كاملة، إلا أكثر المدمنين على تتبع نشرات الأخبار».

لـم تكـن تجهيزات شبكة الإعـلام العراقية، علاوة على ذلك، تصلـح لإدارة برنامج صحفـي جامعـي. أدرك نورث، حيـن نقلت الطائرة عربـة الهامر إلى بغـداد، أن شركة التطبيقات باتت تنظر بجدية إلى قضية تمويل الشبكة. طالب الرجل باقتناء طبق لاقط، بكلفة 500 دولار، لعرض صور وكالات الأنباء العالمية في نشرة الأخبار المسائية، ناهيك عن طباعة كتيب تدريبي بالعربية، بكلفة 200 دولار، لترفض الشركة كلا المطلبين.

تحـدث أحد مسؤولي الشركة إلى نورث، بعد بضعة أيام، قائلاً: «سنحضر معدات جديدة رائعة».

عقب نورث قائلاً: «عظيم، لعلها بطاريات الكاميرات التي طالبنا بها منذ أسابيع».

عقب المسؤول قائلاً: «لا، بل جهاز لعرض النص».

عقـب نورث قائلاً: «لا تحتوي لائحتي على ذلك الجهـاز. شكراً لك، يبلي مذيعونا حسنا عبر القراءة من الورقة. لا حاجة لنا به».

عقب المسؤول قائلاً: «آه، لا. سنحضر الجهاز لبريمر. سيوضع في إستوديو تلفزيوني في القصر، كي يتمكن الأخير من توجيه خطابات أسبوعية إلى العراقيين».

عقب نورث قائلا: «ماذا عن بطارياتي؟». لم يملك المسؤول إجابة عن ذلك السؤال.

لـم يلزم عقد شركة التطبيقات، الذي تمت صياغته في البنتاغون، شبكة الإعلام العراقيـة ببـث الأخبار أربعاً وعشريـن ساعة يومياً، كما الجزيـرة والعربية، لتضمن ساعـات إرسالها الأفـلام، وبرامج الأطفال والطهي. تحدث نـورث، مع ذلك، قائلاً: إن نقصـ التخطيـط نتج في بث غير قانونـي لأفلام أمريكيـة ذات حقوق محفوظة، صودرت من قصر عدي، النجل الأكبر لصدام.

أجرت وزارة الخارجية الأمريكية، بعد ستة أشهر من الحرب، دراسة حول عادات مشاهـدة التلفـاز العراقية. قال 63% مـن العراقيين، الذين يملكـون أطباقاً لاقطة: إنهـم يتابعون الأخبار على شاشتي الجزيرة والعربية، بينمـا لم تتعدَّ نسبة مشاهدي شبكـة الإعـلام العراقية 12%. استنتج نورث، في حينـه، أن الشبكة «غدت أداة لبث دعايـات سلطة الائتـلاف المؤقتة، ناهيك عن أخبارها الموجهـة، وبرامجها الرديئة النوعية». أردف الرجل قائلاً: «تحدث الرئيس بوش، في واشنطن، عن «الانخراط في معركة الأفكار في العالم العربي»، لنخسر الجولة الأولى منها، في بغداد، بالفعل».

رفضـ البنتاغون تمديد عقد شركـة تطبيقات العلوم الدولية، حيـن انتهى أجله. رغـب مسؤولو وزارة الدفاع في التعاقد مع شركة ذات خبرة أكبر في تأسيس الإعلام

فـي مراحل ما بعد النـزاع. أعلن البنتاغون، في كانون الثاني/ يناير 2004، أن العقد الجديـد، الذي تبلـغ قيمته 95 مليون دولار للسنة الأولـى، سيمنح إلى شركة هاريس، مصنع معدات الاتصال والبث. لم يسبق لتلك الشركة، في حينه، بكل الأحوال، إقامة محطة تلفزيونية في أي من مناطق الحرب.

وصـل مايكل باتلز بغداد، عقب شهر من الحرب، وفي جعبته 450 دولاراً، وخطط لجني الملايين عبر عقود إعادة الإعمار. لم يحظَ الرجل بما امتلكه غيره من صائدي الأعمال في العراق – من حماية أمنية، أو تجهيزات، أو مجمعات محصنة. قدم باتلز مـن الأردن بسيـارة أجرة، دفع النقـود لسائقها مما اقترضه مـن صديقه. لم يفتقر الرجـل، البالغ ثلاثة وثلاثين مـن العمر، بكل الأحوال، إلى الجـرأة أو المعارف. أتم دراستـه في كلية ويست بوينت، قبـل العمل مع وكالة الاستخبـارات الأمريكية. اعتاد باتلـز المشاركـة في سباقات الروديـو، ناهيك عن ترشحه لعضويـة الكونغرس، وقد كانت له العديد من الصلات في العراق والبيت الأبيض.

تمثلـت وجهة الرجل الأولى في القصر الجمهـوري. لم يكن يتعين على المرء، في حينـه، سوى إبـراز جواز سفره الأمريكـي بغية دخول القصر. علـم باتلز، بينما كان يسير في أروقته، أن سلطة الائتلاف المؤقتة تلتمس شركة أمنية لحراسة مطار بغداد الدولـي. رغبت السلطـة في فتح المطار أمـام حركة الطيران المدنـي أثناء شهرين مـن الزمن، وقد كانـت بحاجة لمتعهد خاص يوفر الحرس وأجهـزة فحص الأمتعة فـي غضون أسابيع. أقنـع باتلز مسؤول السلطة بوضعه علـى لائحة المرشحين لتولي المهمـة. تحدث الرجل، بذلك الصدد، قائلاً: «مثل الخوف والاضطراب، في نظرنا، دافعين لإعطاء ما هو صادق من الوعود».

لـم يشجع مظهر باتلز على العبث معه. كان ضخـم الجثة، عريض المنكبين، بما يَسِـمُ عملاء السـي آي أيه، وجنود القوات الخاصة. لم يفتقر الرجل إلى الدبلوماسية بكل الأحوال، مبتسماً في وجه محدثيه، مصافحاً إياهم بحرارة، متحدثاً بما ينم عن إلمامه بمجال الأمن الخاص.

لـم يتـولَ باتلز، وشريكه سكوت كستـر، العنصر السابق في جوالـة الجيش، مهمة حراسـة مطار من قبـل، ناهيك عن عدم حصولهمـا على أي من العقـود الفيدرالية. أجـرت شركتهما تقويماً أمنياً لمطار كابول، لحسـاب وزارة الطيران الأفغانية. انتهى عمـل الرجليـن في أفغانستان، مع بـدء الحرب على العراق، ليبـدأا البحث عن فرص جديـدة. عمـل كستر على تسديد نفقـات الشركة، بينما كان باتلـز يلتمس التعاقد في بغداد، عبر إعطاء دروس في مكافحة الإرهاب لمديرين عامين في رينو.

أسمـى الرجلان شركتهما «كستر باتلز إل إل سي»، مما أثار السخرية في العراق. اعتـاد كستـر إخبار الناس أنـه يرتبط بقرابة غيـر مباشرة بجـورج كستر، الجنرال المهـزوم في معركـة «ليتل بيغهـورن» (تعنـي كلمة باتـل، المفرد من باتلـز، معركة باللغة الإنجليزية). لم تتسم ردود أفعال كستر، المتعهد، بالإيجابية، حين كان الناس يشيرون إلى هزيمة كستر، الجنرال، على أيدي السكان المحليين.

أدرك باتلـز حاجته، وشريكه، إلـى العون فيما يتعلق بمهمة المطار. اتصل الرجل بأربـع شـركات أخرى، يرأس إحداها روبرت إيساكسون، عميـل الإف بي آي السابق، الـذي تحول إلـى مهنة المقـاولات. أدار إيساكسون، متوسط العمـر، منتهز الفرص، المنتمـي إلى آلاباما، شركة مختصة في تقديـم الخدمات الإداريـة، في مراحل ما بعد النـزاع، ناهيك عن المقطـورات السكنية، والأثاث، والطهـاة، وعمال التنظيف. عملـت شركـة إيساكسـون، «دي آر سـي إنكوربوريتيـد»، علاوة على ذلـك، على بناء الطـرق، ومهابـط المروحيات، ومساكن مؤقتة لقوات الناتـو المتمركزة في كوسوفو. أرسلـت الشركة، في العام 1993، موظفين إلـى الصومال، بعد ثلاثة أيام من وصول القـوات الأمريكية، لتوفير مقرات الإقامـة، والمراحيض المتنقلـة، والطعام للجنود والمتعهديـن. التقى باتلز إيساكسون قبل توجهه إلـى العراق. خاطبه الأول قائلاً: إن الـوزارات العراقيـة ستمنح عقود إعادة الإعمار، لا الحكومـة الأمريكية، وإن الوسيلة الوحيدة للفوز بها تتمثل في الحصول على شركاء عراقيين. عرض باتلز -الذي قال: إنه يعرف عدداً من العراقيين- العمل وسيطاً لدى إيساكسون.

طرحت سلطة الائتلاف المؤقتة، بعد ثلاثة أسابيع من زيارة باتلز القصر الجمهوري، مناقصة لحراسة المطار. اتصل باتلز بإيساكسون ليخبره بحدوث تغيير في الخطة. سيتولى الأول مهمة حراسة المطار، عوضاً عن التوسط كي تفوز بها شركة إيساكسون. خاطبه باتلز، بذلك الصدد، قائلاً: «سنتقدم إلى تلك المناقصة، ولكننا نود مشاركتكم». التمست شركة كستر باتلز عون إيساكسون لبناء مقرات إقامة في المطار، وتوظيف العشرات من الحراس في مدة قصيرة.

أمضى كستر، الذي كان لا يزال في رينو، ثلاث ليالٍ في صياغة عرض الشركة على حاسوبه المحمول. تعهدت الوثيقة، المؤلفة من ثلاث وعشرين صفحة، بتوفير 138 حارساً –«فريقاً متكاملاً للأمن والمراقبة خدمة للمسافرين»– على الأرض في أربعة عشر يوما، مع التأكيد على ضرورة انتمائهم إلى دول «تحالف الراغبين». اتسم العرض بالوضوح والجرأة، حيث وصفت الشركة نفسها «بالدولية الرائدة في مجال الحماية الأمنية، ذات الخبرة الواسعة في تقديم العون إلى المنظمات الكبيرة، بغية توفير الأمن في المناطق شديدة الاضطراب».

تقدمت شركتان أمنيتان خاصتان متميزتان، علاوة على ذلك، بعرضين إلى المناقصة، ليمثل عرض كستر باتلز الأقل كلفة. تجسد ما هو أكثر أهمية في تعهد الشركة بتوفير الحرس على الأرض قبل أسابيع من الشركات الأخرى، بالرغم من أن عدد موظفيها الأمنيين لم يكن يتجاوز العشرة، على وجه التقريب، حين تقدمت بالعرض.

أعلمت سلطة الائتلاف المؤقتة شركة كستر باتلز بفوزها بالعقد، البالغ 16 مليون دولار، بعد يومين من استلام عرضها.

تحدث كستر، في وقت لاحق، بذلك الصدد، قائلاً: «حظينا بالعقد لصغر سننا، وحماقتنا، وجهلنا. كان من شأن أي ممن يملكون الخبرة المطالبة بثمانية أسابيع قبل العمل على الأرض».

فوجئ فرانكلين ويليز، معاون كبير مستشاري وزارة النقل، لدى سلطة الائتلاف المؤقتة، بقرار لجنة الاختيار المؤلفة من ثلاثة أفراد، قائلاً: «لم يمنحوا سوى ثلاثة

أيام للتقدم بالعروض، ناهيك عما اتسم به طلبهم من عمومية: توفير الأمن للرحلات المدنيــة – في مطار يغطي مساحة عشرة أميال مربعة. تحدث ممثل إحدى الشركات المشهورة المتميزة، بذلك الصدد، قائلاً: «يتعين علينا معرفة المزيد من المعلومات قبــل التقــدم بعرضنا»، بينمــا أشار آخر إلــى «حاجة شركتــه إلى ستــة أسابيع بغية إنجــاز المهمة على الوجه المطلــوب». أقصيت الشركات الأخــرى –بعد ذلك– لعدم استجابتها، أو قدرتها على إتمام العمل في غضون أسبوعين، بينما أكدت شركة كستر باتلز على جاهزيتها للقيام بذلك، مما منحها العقد بالنتيجة».

أردف ويليز قائلاً: «افتقر الأمر برمته إلى الصواب».

بعــث باتلــز برسالة إلكترونيــة إلى إيساكسون، مــا إن أعلن الخبــر، قائلاً: «فزنا بالعقد!، ابدأ العمل فوراً».

توجــه إيساكســون إلــى الأردن، حيث عمل على اقتنــاء الأثاث، وتعاقــد مع شركة سعوديــة لشحن المقطــورات السكنية إلــى المطار. أرسل الرجل، عــلاوة على ذلك، شقيقه إلــى نيبال لتوظيف مقاتلين سابقين من الغــوركا (مقاتلي الجبال الأشداء)، بالرغم من تأكيد الوثيقة على ضرورة انتماء الحرس إلى دول تحالف الراغبين.

لم تتمكن شركة كستر باتلز من تأمين المال الذي وعدت به لتغطية نفقات المهمة الأولية. من ثَمّ لجأ باتلز، إلى سلطة الائتلاف المؤقتة طلبا للعون.

خاطبــه ويليز قائلاً: «أحضر كيساً من القماش». وضع الأخير على مكتبه مليونين مــن الدولارات –من فئــة المئة ورقة– القادمــة من البنك الاحتياطــي الفيدرالي في نيويورك. لم يــرد ويليز القيام بذلك، في بادئ الأمر، ليرضخ لطلب مسؤولي التعاقد فــي سلطــة الائتلاف فيما بعــد. عبأ باتلز الــدولارات في كيس قماشــي، بطول أربعة أقــدام، قبل أن يقفل عائداً إلى المطار. توجه الرجــل إلى بيروت، بعد بضع ساعات، ليودع المال في مصرف لبناني.

لــم تكن مهمة الشركــة باليسيرة. مثَّل مطار بغداد كارثة بــكل معنى الكلمة. عمد الجنود العراقيون إلى تدميــر محتوياته، مع دخول القوات الأمريكية المدينة، ناهيك

عـن تفخيخ مراحيضه. بذل موظفو الشركة كثيراً مـن الجهد لتنظيف المكان، بينما كان العشرات من الحراس في طريقهم إلى العراق، ناهيك عن إعادة تجديد المباني، وتركيـب الصنابير في الحمامات، وتحويل جزء من المطار، علاوة على مطبخه، إلى مهجع كبير، وقاعة للطعام.

لـم تمتلك الشركة نظاماً للمحاسبة أو شبكـة حاسوبية، لتنجح في جلب الحراس إلـى بغداد فـي أثناء مـدة الأسبوعين. قرر بريمـر، فيما بعد، عدم افتتـاح المطار، بالنظـر إلى مـا يملكه المتمردون مـن صواريخ أرض – جو. طالبـت سلطة الائتلاف المؤقتة الشركة، مع ذلك، بالبقاء في المطار، ليتمركز حراسها في أرجائه، وتحظى بمليونين آخرين من الدولارات.

انخـرط إيساكسـون، بعد بضعة أسابيع، في حوار مع تاجـر نفط باكستاني، يعمل مستشاراً لدى شركة كستر باتلز. اقترح الأخير دخول الشركاء الثلاثة في مناقصات لنيـل عقـود حكومية، تكفـل تعويض نفقات المشاركـة فيها، وتحقيـق نسبة ثابتة من الربـح. لـم ترق الفكـرة لإيساكسـون، بالنظر إلـى انخفاض مهمش الربـح، ليقترح التاجـر اختلاق شركة وهمية في لبنان، تضخم نفقات ما تقدمه كستر باتلز للحكومة عبر تلك العقود، مما يمنحها نسبة ربح مطلقة.

عقب إيساكسون قائلاً: «ستذهب إلى السجن إن فعلت ذلك».

عقب التاجر قائلاً: «آه، لا. نفعل ذلك على الدوام».

عقب إيساكسون قائلاً: «ليس مع الأمريكيين. لا تقحمني في الأمر. لن أفعل ذلك».

أثار جوزيف موريس، أحد مسؤولي الشركة، الأمر مجدداً، بعد بضعة أيام، ليحذره إيساكسون من الذهاب إلى السجن، على حد سواء، قبل أن ينضم كستر إلى الجوقة، ويلقى الإجابة ذاتها.

بـدأت العلاقة تتدهور بيـن الطرفين في تلـك المرحلة. أكـد إيساكسون على أن السبـب يعود إلى رفضـه المشاركة في تلك العملية، بينما أشارت الشركة إلى أنه كان ناتجاً عن رداءة نوعية المقطورات التي أقامها إيساكسون، وهو ما نفاه بشدة.

أحضـر إيساكسـون -بينما كان الخلاف يحتدم- ولـده ذا الأربعة عشر ربيعاً إلى بغـداد. أصيـب الرجل بمرض مناعي، قبل بضعة أشهر، ولـم يدرِ متى ينقضي أجله. رغب إيساكسون، من ثمّ في تمضية ما أمكنه من الوقت مع بوبي الصغير.

تحدث إيساكسون قائلاً: إن موريس أمره، ونجله، وشقيقه، بعد أسبوع من محادثته مـع كستر، بمغـادرة مجمـع الشركة. احتجـز حراسها الثلاثـة، قبل نـزع أسلحتهم وبطاقاتهم التعريفية، وطردهم من المطار. انفجر إيساكسون غضباً، يطلق الشتائم، بينمـا هم بالمغادرة. استقـل الثلاثة سيارة أجرة إلى الأردن، مع افتقارهم إلى مكان آخـر للإقامة في العراق. تعين عليهـم المرور، بغية الوصول إلـى وجهتهم، بمدينتي الفلوجة والرمادي الخطرتين.

حظيـت شركـة كستر باتلز، بعـد شهر من طـرد إيساكسون، بـأول العقود سالفة الذكـر. تمثلت مهمة الشركة في مساعدة سلطة الائتلاف المؤقتة على استبدال عملة العـراق القديمـة، عبر بناء معسكرات في جنوب، ووسط، وشمـال العراق، بغية إيواء وإطعام المئات مـن المتعهدين الخصوصيين المنخرطين في عملية التبديل، ناهيك عن توفير الشاحنات، والعربات الأخرى، لنقل آلاف الأطنان من العملة الجديدة، التي طبعـت فيما وراء البحار، ونقلت إلى مطار بغداد جـوا. نص العقد على تلقي الشركة نسبة ربح تعادل 25%، علاوة على كلفة ما تقدمه من عمال ومعدات.

عملت شركة كستر باتلز، في حينه، على اختلاق «شركات شام» الوهمية، المسجلة في جزر كايمان ولبنان، بغية إصدار سلسلة من الفواتير المزورة، التي تشير إلى قيام تلـك الشركات بتأجير شاحنات، وغيرها من المعـدات، إلى كستر باتلز، وفق مذكرة كتبت لاحقاً من قبل نائب المستشار العام للبنتاغون. ضخمت النفقات إلى حد بعيد، بمـا يمكـن شركة كستر باتلز من جنـي أرباح تفوق نسبة الخمسـة والعشرين بالمئة، المحددة في العقد، بحسب المذكرة.

تـرك ممثلو شركـة كستر باتلز مصادفة، بعد مضي شهريـن، ورقة على الطاولة، عقـب اجتماع مع مسؤولي سلطة الائتلاف المؤقتة. أظهرت الورقة أن الشركة طالبت

السلطة بمبلغ 9.801.550 دولاراً، مقابل ما تعادل كلفته الحقيقية 3.738.592 دولاراً ـــ بزيادة تبلـغ 162%. كلف بناء مهبط للمروحيات في الموصـل، على سبيل المثال، 97 ألف دولار، لتضخم الشركة قيمته إلى 175 ألفاً. كتب ويليام «بيت» بولدوين، مدير المرافق في الشركة، في رسالة إلكترونية، قائلاً: إن «كل رقم في تلك الفاتورة زائف، ومفبـرك، ومضخم». مثلت أكوام الخردة وسيلة ملائمة للربح على حد سواء: أعادت الشركـة طلاء ما وجدته مـن عربات الخطـوط الجوية العراقيـة المهترئة، لتطالب سلطـة الائتلاف بآلاف الـدولارات شهرياً مقابل استخدامها، زاعمـة أنها مستأجرة مـن الخارج. حصلـت شركة كستر باتلز، في نهاية المطاف، على 21 مليون دولار من سلطة الائتلاف المؤقتة، نظير إسهاماتها في عملية تبديل العملة.

كتـب بولدويـن إلى رؤسائه، خـلال العملية الأخيرة، محذراً مـن فبركة وتضخيم الفواتير، كما فعل بيتر ميسكوفيتش، مدير عملية التبديل. كتب الأخير، في مذكرة إلى مديـر شركة كستر باتلز، قائلاً: إن إحدى الفواتيـر البالغة 2.7 مليون دولار استندت إلـى «عقود تأجير ملفقة، وأرقام مضخمة ومكررة»، ناهيك عما حوته السجلات التي قام بفحصها «من أدلة واضحة على سلوك متوافق مع أنشطة ونوايا جرمية».

حرك إيساكسون وبولدوين، قبل بضعة أيام من كتابة ميسكوفيتش مذكرته، دعوى قضائية ضد الشركة بالنيابة عـن الحكومة الأمريكية. وصفت كستر باتلز الاتهامات الموجهة ضدها بالمزاعم الكاذبة من قبل «موظف ناقم».

دفعت القضية البنتاغون إلى إجراء تحقيق، وقد أعلن، في أيلول/ سبتمبر 2004، بعـد أكثر من عام على منح الشركة عقد تبديـل العملة أنها ستحرم من نيل أي عقود عسكرية إضافية. أوردت وزارة الدفاع أدلة قوية على «وجود تجاوزات خطرة».

تجـاوز مجمـوع ما تلقته الشركة، مع ذلك، بحلول تلـك المرحلة، مئة مليون دولار عبر عقود مع الحكومة الأمريكية.

كافـح بن توماس لإعالـة نفسه في فلوريدة عبـر ممارسة ما يشبـه الملاكمة، بلا قفازات أو قواعد، قبل أن يقترح عليه صديقه التقدم إلى وظيفة في شركة تدعى كستر

باتلـز. أعجب الرجل باسم الشركـة، التي فازت لتوّها بعقد لحراسة مطار بغداد، كما أخبـره صديقه، ناهيك عن حاجتها إلى كثير مـن الموظفين. رغب توماس في متابعة القتال، ولكنه كان مفلساً. اتصل، في اليوم الثاني، بمكتب الموارد البشرية في الشركة، قبل أن يلفظ العبارة السحرية الآتية: «كنت جندياً في قوات البحرية الخاصة».

لـم يفحص أحد السير الذاتيـة للمتقدمين، في غمرة الاندفـاع إلى تعيين حرس أمنييـن خصوصيين في العراق. إن سبق لك الالتحاق بالقوات الخاصة في الجيش أو البحريـة، التي تمثل النخبة، فسيتم اختيـارك على الفور. لم يكن المرء بحاجة سوى البوح بذلك.

بلغ توماس السابعة والعشرين من العمر. لم يتجاوز طوله مئة وثمانية وستين سم، ولكنـه كان قـادراً، كما بدت الحال عليـه، على هزيمة من يفوقه فـي الحجم مرتين. اختـال الرجـل في مشيته، بما ينم عـن تحذير الناس من العبث معـه. لم يخلُ جسد توماس من الوشوم، ولم يفتقر إلى بذاءة أي من البحارة، ولكنه اعتاد سؤالي بتعاطف عـن حال أمي، التي تخضع للعلاج مـن السرطان، كلما تحدث إلي. افتتن الرجل بفن النحت الروماني، ولكن حاسوبه المحمول كان يزخر بالصور ومقاطع الفيديو الرقمية لهجمات المتمردين الدموية. عرف توماس، في شبكة الإنترنت، باسم «دبابلو بوي».

أخبرت الشركة توماس، قبل تعيينه، بإمكانية عمله حارساً شخصياً لمسؤول بارز. انطوى ذلك على الإثارة بما يفوق العمل في المطار.

منحـت الشركـة توماس -عنـد وصوله بغداد، في تمـوز/ يوليـو 2003- مسدساً وبندقيـة آلية من طراز «إم 4»، ناهيك عـن سبعة مخازن للذخيرة، يستوعب كل منها ثلاثين طلقة. لم يحظَ الرجل، مع ذلك، بسوى عشرين منها. تحدث، بذلك الصدد، قائـلاً: «إن تعرضنـا لكمين، فلن تكفي عشرون طلقة». لم يكـن بمقدور توماس -من ثـمّ- الرمي لأكثر من ثلاث عشـرة ثانية، بالنظر إلى قدرة إطـلاق بندقية «الإم 4»، التي تعادل تسعين رصاصة في الدقيقة.

أخبر مراقب الشركة توماس بوجود نقص في مخزون الذخيرة لديها.

لـم تكن سترة الرجـل الواقية بأحسن حال. اقتصرت قدرتهـا، وهي المخصصة لرجال الشرطة في الولايات المتحدة، على صد طلقات المسدسات، لا البنادق الآلية من طراز «إي كي 47»، المنتشرة في العراق.

تحـدث توماس، بينما كان يستلم سترته الواقية، قائلاً: «ألم يخطر ببال أحد هنا أن هذا الدرع عاجز عن صد أي طلقة في العراق؟».

خسـرت شركـة كستـر باتلز، مـع تهيؤ توماس للعمـل الميداني، عقـد حماية الشخصيـات البارزة، لتوفر له، بكل الأحـوال، وظيفة أخرى. حصلت الشركة على تخويل مكتوب بجمع الأسلحة التي يصادرها الجيش الأمريكي. تمثلت مهمة توماس فـي زيارة مخابـئ ونقاط مراقبة القـوات الخاصة، برفقة أحـد زملائه، بغية نقل الأسلحة العراقية.

تنقـل الرجل في وسط العـراق، برفقة زميله، بواسطة إحـدى الشاحنات، لينقلا أربـع مئـة بندقية آلية من طراز «إي كي 47»، وغيرها مـن المدافع الرشاشة، ناهيك عـن حاويات القنابل اليدوية، ونصف مليون طلقة، وعدد من مدافع «زد إس يو – 23» روسية الصنع، المضادة للطائرات. أجاب كستر توماس، حين سأله عن سبب القيام بذلك، قائلاً: إن الشركة كانت مقبلة على مناقصة لتدريب الجيش العراقي الجديد، بما يستلزم الحصول على السلاح. تملك الشك توماس في قيام الشركة بشحن العتاد خارج العراق بغية بيعه، لينفذ ما طلب منه.

تألف معسكر شركة كستر باتلز من تجمع للمقطورات في موقف مهمل ضمن أرض المطار. مثّل ذلك وضعاً مريحاً وفق المقاييس العراقية. اعتاد توماس ابتياع الفودكا، مقابـل تسعـة دولارات للزجاجة، من سـوق المطار الحرة، ناهيك عـن التسكع قبالة حوض السباحة، وتدخين السيجار، ومشاهدة أفلام الفيديو. استدعي الرجل، علاوة علـى ذلـك، بين الفينة والأخـرى، للقيام بجولة فـي المدينة، ونقل المـؤن، ومرافقة مسؤولي الشركة إلى المنطقة الخضراء.

توجـه توماسـ، برفقة ثلاثة من زملائـه، صبيحة أحد أيام أيلـول/ سبتمبر، إلى مركـز مدينة بغـداد، بواسطة عربة رباعيـة الدفع. غادر الأربعـة المطار عبر طريق

جانبـي، يؤدي إلـى الطريق السريع، باتجـاه مركز المدينة، حين بلغـوا إحدى نقاط تفتيش الشرطة. أمر عناصـر النقطة سائق العربة بالتقليل مـن سرعته، عوضاً عن السمـاح لركابها الأجانب بالمرور، كما يحدث في معظم الأحيان. أدار أحد العناصر رأسـه، بينما كان توماس وصحبه يعبرون النقطة. مثلت تلك إشارة معينة، بما لم يثر انتباه توماس، قائد العربة.

فوجئ ركاب العربة، بعد ثوانٍ من عبور النقطة، بصخور، وصفائح وقود، وتلال من الـركام تعترض طريقهم. تعين على توماس، بغيـة تجاوزها، الانحراف عن الطريق، نحو اليسار، قبل القيادة بمحاذاة مبنى صغير، ثم العودة إلى الطريق ذاته. لم يتردد الرجل في القيام بذلك، ليسمع صوت الطلقات، ما إن بدأ انحرافه.

فكر توماس، في تلك اللحظة، قائلاً لنفسه: «آه، اللعنة. نتعرض لإطلاق النيران».

حـاول الرجل زيادة سرعته، لتتوقف العربة عن الحركة، وتصدر ما هو مزعج من الأصوات. غادرها صحبه سريعاً، قبل التوجه نحو المبنى، جرياً على أقدامهم، بينما نزل توماس أسفل العربة. تحدث الأخير، بذلك الصدد، في وقت لاحق، قائلاً: «حدث ذلك قبل أن أتعلم الدرس المتمثل في عدم قدرة السيارات على صد الطلقات».

قدر الرجل، من وضعيته أسفل العربة، تعرضه، وصحبه، لإطلاق النار من قبل ستة من الأشرار، بينما استطاع تمييز واحد منهم، لا أكثر، عبر نيران سلاحه الرشاش.

استـل توماس بندقيتـه الآلية، من طـراز «إم 4»، قبـل أن يصوبها نحـو الرجل، ويضغط على الزناد، ليخطئه بالنتيجة. استذكر توماس، بعيد لحظات، أحد الدروس التي تلقاها في أثناء تدريبه العسكري: إن كنت تحاول إصابة أحدهم من أسفل سيارة ما، فسيتعين عليك التموضع على جانبك، بغية امتلاك زاوية أفضل. بادر توماس إلى القيـام بذلك، معيناً حوض الرجـل هدفاً له، قبل إطلاق النـار ثانية. استدار الرجل قبيل برهة من ضغط الزناد، ليصيبه توماس في ردفه.

تفـرق بقيـة المهاجميـن، ليتقدم توماس وصحبه، بعد انتهـاء المعركة؛ بغية معاينة القتيل.

تهشم وركه، بالنتيجة، ناهيك عن تهتك معدته، حيث اخترقت الطلقة جسده. تحدث توماس، بذلك الصدد، قائلاً: «تبعثرت أمعاؤه وكأن أحداً قد مزقه إرباً».

اعترف توماس لصحبه، في حينه، بامتلاكه نوعاً مختلفاً من الذخيرة عما يستخدمه الجيش والمتعهدون الأمنيون الآخرون. لم تختلف في حجمها عن الطلقات النظامية، دون أن تغلف بالنحاس في نهايتها، ناهيك عما يكسوها من لون أسود. زعمت الشركة الموزعة لتلك الطلقات، التي منحت توماس عدداً من صناديقها قبل توجهه إلى العراق، أنها تختلف للغاية عن نظيراتها النظامية: احتوت على خليط من المعادن، بما في ذلك البلاتين، عوضاً عن الرصاص، بحيث تخترق الدروع الصلبة، وتنفجر في الجسد البشري، محدثة ما هو بالغ من الإصابات.

فندت مزاعم الشركة من قبل عدد من خبراء المقذوفات، بمن فيهم جراح في جامعة ستانفورد، اختبر الطلقات لحساب الحكومة الأمريكية. أكد الرجل احتواءها على الرصاص، وأن اختلافها يكمن في استيعابها المزيد من البارود، ناهيك عن دقة أطرافها. تزداد قابلية تلك الطلقات، المفتقرة إلى غلاف معدني كامل، للانفجار والتشظي، بينما تلج الجسم البشري. حظرت معاهدة هيغ، في العام 1899، استخدامها في ساحات القتال، بالرغم من استخدامها من قبل الغالبية الساحقة من دوائر الشرطة في الولايات المتحدة ــ بالنظر إلى انخفاض قابليتها لاختراق الأهداف، وإصابة المارة. لم توقع الولايات المتحدة على تلك المعاهدة، على وجه الإطلاق، ليلتزم البنتاغون، مع ذلك، ببنودها منذ أمد طويل. لم يستخدم الجنود الأمريكيون –من ثَمّ– سوى الطلقات المزودة بغلاف معدني كامل.

لو كان توماس جندياً نظامياً في الجيش الأمريكي، لحوكم عسكرياً بتهمة استخدام تلك الطلقات. اتسمت القوانين بالميوعة، بكل الأحوال، فيما يتعلق بالمتعهدين الأمنيين الخصوصيين. لم يحدد عقد شركة كستر باتلز، مع سلطة الائتلاف المؤقتة، نوعية ما تستخدمه من طلقات.

أصدر القادة العسكريون، حين علموا بأمر الطلقات المستخدمة في الحادثة، مذكرة إلى الشركات الأمنية، تحذر من مغبة استخدام الطلقات غير النظامية. لم

تكـن هنـاك، بكل الأحـوال، وسيلة فاعلة لتطبيـق تلك القاعـدة، أو غيرها مما حاول الجيش فرضه على المتعهدين الأمنيين، ليتجاوزوا قوانين الحرب برمتها.

ازدادت المطالبة بتلك النوعية من الطلقات، مع انتشار أخبار الحادثة في مجتمع الشـركات الأمنيـة الخاصة. منـح توماس كل ما امتلكـه منها، بينمـا أحضر آخرون المزيد من صناديقها في حقائبهم.

تحـدث توماس، بذلك الصدد، قائلاً: «لا توجد قواعـد فيما يتعلق بتلك المسألة. يتعين عليك القيام بكل ما يلزم لحماية نفسك».

obeikandl.com

المنطقة الخضراء، المشهد السادس

مثّلت الكتب والمجلات، القادمة من الديار، مواد ثمينة للغاية. اتسم عدم تمريرها إلى الأصدقاء بالسلبية، عند انتهاء المرء من قراءتها. حظيت الروايات البوليسية وكتب الإثارة بالشعبية الأكبر بين صفوف القارئين، على النقيض من التي تتناول العراق، والعالم العربي، والإسلام. جسدت القراءة عن العراق، قبل الخلود إلى النوم، عقب التفكير به طيلة اليوم، آخر ما يود المرء عمله. لم تفتقر بعض الكتب الموضوعة عنه، بكل الأحوال، إلى التميز. عثر أحد موظفي هاليبرتون على نسخ عن «دليل الحمقى الكامل لفهم العراق»، بينما كان ينظف غرف موظفي سلطة الائتلاف المؤقتة في فندق الرشيد. رفض أحد موظفي السلطة البارزين تلقي نسخة عن كتاب حنا بطاطو «الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية في العراق»، العمل البارز عن التاريخ الإقليمي، حين عرض أحد المترجمين الأمريكيين العراقيين إعارته إياها. أشار الموظف إلى كتاب صغير على مكتبه، قائلاً: «كل ما أحتاجه موجود هنا». التقط المترجم الكتاب، ليتبين أنه دليل سياحي عن العراق، كتب في سبعينيات القرن المنصرم.

obeikandl.com